

مظاهر القيم الخلقية والنفسية في معلقة لبيد بن ربيعة (قراءة أخرى)

أبوهداية محمد إسماعيل محمد

جامعة كردفان - كلية التربية - قس اللغة العربية (الأدب والنقد)

مستخلص

هدفت الدراسة إلى بيان الاتجاه الخلقى للشاعر لبيد بن ربيعة من خلال معلقته في عصره الأول. اتبعت الدراسة المنهج الوصفي الاستقرائي. أهم نتائج الدراسة: أنّ لبيداً استطاع أن يعبر بصدق عن صورة إنسان الجاهلية، وعن أفكاره، ومشاعره، وظروفه البيئية المحيطة، وأنّ المعلقة اتخذت من العقل والشجاعة والعدل والعفة موجهاً ومؤثراً في تكوينها. اوصت الدراسة بالاستفادة من الدراسات النفسية الحديثة في إعادة قراءة هذه المعلقة لكشف مزايا وصفات لبيد وما تنطوي عليه نفسه الشاعرة.

Abstract

The study aimed to demonstrate the moral direction of the poet Labeed bin Rabia through his comment in his first era. The study followed the descriptive approach. The most important results of the study: that Lebeed was able to express honestly the image of the ignorancy humanting, and his thoughts, feelings, environmental surrounding conditions. And that the outstanding taken from the mind and courage, justice and chastity directed and influential in is composition. The study recommended to use modern psychological studies in re-reading this outstanding to reveal the advantages of recipes for the poem and the poet himself.

مقدمة

الحمد لله الذي أحلنا محلّة الفهم، وحلّلنا حلية العلم، وملكنا عقال العقل، وزينا بنطق المنطق، ونعوذ به من كدر صفاء الفكر، وصلى الله على المبعوث بجوامع الكلم إلى أعقل الأمم، وعلى أتباعه السائرين في منهاج أتباعه وسلم تسليمًا كثيرًا. الاتجاه الخلقى في النقد هو محاولة لإعادة قراءة الشعر من خلال زاوية الأخلاق بوصفها الموجه للمؤثرات الداعية لقول الشعر في العصر الجاهلي، كانت معلقة لبيد بن ربيعة ميداناً لتلك الدراسة، لنحاول من خلالها التأكيد على أنّ الأخلاق هي التي تسيطر على اتجاه الشاعر وتتحكم في أفكاره عند نظمه لقصيدته، وأن القصيدة عبارة عن ترجمة لما كان سائداً من خلق وفي ظننا أنّه اتجاه جديد في قراءة الشعر وتذوقه لم يتطرق إليه قدامى النقاد، ومن هنا كان اختيارنا لهذه المعلقة؛ لأنّ لبيداً عاش دهرًا طويلاً مكنه من رسم صورة كاملة المعالم، تامة للأخلاق على اختلاف جوانبها.

تعريف الشاعر

لبيد أحد شعراء الجاهلية المعدودين فيها والمخضرمين ممن أدرك الإسلام، وهو من أشرف الشعراء المجيدين الفُرسان المعمرين، يقال^(١): إنّه عمّر مائة وخمسة وأربعين سنة.

قال ابن الأنباري، والأصفهاني^(٢): هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر، وأضاف التبريزي^(٣): إلياس بن معد بن عدنان. ويكنّى^(١): بأبي عقيل.

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ط أولى، ط دار الشعب، ١٩٨٩م، ج١٥، ص: ٢٩١.

(٢) ابن الأنباري (محمد بن القاسم)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق: عبد السلام محمد هرون، ط الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م، ص: ٥٠٥.

(٣) التبريزي (أبو بكر بن يحيى بن علي بن محمد الشيباني)، شرح القصائد العشر، تصح: محمد يحيى الدين عبد الحميد، ط أولى، مطبعة السعادة، مصر، د.ت، ص: ١٥.

كان يُقال لأبيه^(٢): (ربيعة المُهَيَّرَيْن) لجوده وسخائه، قتلته بنو أسد في الحرب التي كانت بينهم وبين قومه، وأدرك ثأره عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب أخوه، وذلك أنه قتل قاتله^(٣).
وأمّ لبيد^(٤): هي تامر بنت زنباع بن جذيمة بن رواحة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان، وكانت يتيمة في حجر الربيع بن زياد.
ولد لبيد حوالي سنة ٥٦٠ م، وقد عاش عمراً طويلاً بلغ عند ابن الأنباري مائة وثلاثين سنة^(٥)، وقال بعضهم^(٦): عاش لبيد مائة وخمسة وأربعين سنة، ولا شك أن هذا العمر الطويل كان له أثره على أدب لبيد عامة ومعلقاته خاصة، فقال حين طوى سبعاً وسبعين^(٨):

قامتْ تشكّي إلى النفس مجهشةً وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فإن تُزادِي ثلاثاً تَبْلغي أملاً وفي الثلاث وفاةً للثمانينا
فلما بلغ تسعين حِجَّةً قال^(٩):

كأنيّ وقد جاوزت تسعين حِجَّةً خلعتُ بها عن منكبّي ردايها
ولما بلغ مائة وعشراً قال^(١٠):

أليس في مائة قد عاشها رجلٌ وفي تكامل عشر بعدها عيّر
ولما بلغ مائة وثلاثين سنةً قال^(١١):

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيدٌ؟
عَلب العزاءُ وكان غير مغلّب دهزّ طويل دائمٌ ممدودٌ
يومٌ إذا يأتي عليّ وليلةٌ وكلاهما بعد المضاء يعودُ

قال ابن قتيبة^(١٢): يُقال: إن وفاته كانت في أول خلافة معاوية سنة: ٤١ هـ، وأنه مات وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة. هكذا نرى أنّ لبيداً عمّر كثيراً، فعمره في رأي المكيّين مائة وسبع وخمسون سنة، وفي رأي المقلّين لا يقل عن مائة وعشر سنوات.

إسلامه :

قال أبو يزيد القرشي^(١): وكان لبيد رجلاً شريفاً كريماً في الجاهلية والإسلام، وكان قد آلى في الجاهلية أن لا تهبّ صباً إلا أظعم، فأدام ذلك في الإسلام، وكانت له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيقطعهم.

(١) ابن الأنباري(مُجّد بن القاسم)،شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص:٥٠٥.

(٢)ديوان لبيد بن ربيعة العامري،ط دار صادر،ص:٢٨٩.

(٣) ابن قتيبة،مُجّد،الشعر والشعراء،تحقيق:أحمد مُجّد شاكر،دار المعارف،القاهرة:(د.ت)، ج١،ص:٢٥٤.

(٤) التبريزي،شرح القصائد العشر، تحقيق:مُجّد محي الدين،ص:١٥.

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة العامري،ص:٨.

(٦) ابن الأنباري،شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص:٥١٧.

(٧)الأصفهاني،أبوالفرج،الأغاني،ج١٥،ص:٢٩٢.

(٨) الطوسي،ديوان لبيد بن ربيعة،تحقيق:حنّا ناصر الحتي،ط أولى،دار الكتاب العربية،بيروت،١٩٩٣م، ص:٢٦٢.

(٩) ديوان لبيد بن ربيعة العامري"،ص:١٤.

(١٠) الطوسي،ديوان لبيد بن ربيعة،ص:٧٦.

(١١)المصدر نفسه،ص:١٥.

(١٢) ابن قتيبة،الشعر والشعراء،ج١،ص:٢٥٣.

ثم أسلم وحسن إسلامه، وجمع القرآن وترك قول الشعر، قال أبو عبيدة لم يقل لبيدٌ في الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو^(٢):
الحمدُ لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالاً
قال ابن قتيبة^(٣): بل هو قوله^(٤):

ما عاتبَ الحرَّ الكريمَ كَنَفْسِهِ والمرءُ يُصَلِّحُهُ الجَلِيسُ الصَّالِحُ

قال د. عمر فاروق الطباع^(٥): أمضى لبيد مرحلة إسلامه نحواً من ثلاثين سنة بعد قدومه في السنة التاسعة للهجرة^(٦) كان فيها مثال المؤمن التقي الورع.

لكن ابن الأثير قال عنه^(٧): لبيد من المؤلفات قلوبهم، وممن حسن إسلامهم؛ لأنّ عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب له كان ألفين وخمسمائة درهم بعد أن كتب إلى أمير المؤمنين سورة البقرة في صحيفة وأتى بها وقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر.
شعره:

قال ابن الأثير^(٨): قَدِمَ الفرزدق الكوفة فمرّ بمسجد بني أقيصر، وعليه رجل ينشد بيت لبيد^(٩):

وجلا السُّيولُ عن الطلول كأثما زُرُّ بُحْدُ متونها أعلامها

سجد فقيل له: ما هذا يا أبافراس؟ قال: أنتم تعرفون سجدة القرآن، وأنا أعرف سجدة الشعر.

قيل^(١٠): إنّ السيدة عائشة (رضي الله عنها) كانت تكثر تمثّل أبيات لبيد، وقيل^(١١): ثمّ قالت (رضي الله سبحانه عنها): رحم الله تعالى لبيداً، إيّ لأروي له ألف بيت.

وعن شعره قال التبريزي^(١٢): كان لبيد نبيل النفس، وافر المروءة، جريئاً شجاعاً، كريم الأخلاق، صادق العاطفة، وقد جرت أخلاقه وعواطفه كلاماً فخماً وألفاظاً جزلة في شعره، فجاء قليل الحشو، مليئاً بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد شهد له النابغة أول ما سمع شعره بأنّه أشعر بني عامر، ثمّ سمع منه فشهد بأنّه أشعر هوازن، ثمّ سمع بعد ذلك فقال: اذهب فأنت أشعر العرب. قال مُجَدِّ بن سلام^(١٣): وكان لبيد بن ربيعة عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام، وكان مسلماً رجل صدق، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم، ويعدّ أيامهم ووقائعهم وفرسانهم. ووضع في الطبقة الثالثة من الشعر.
القول: أنّه من الشعراء المتقدمين في الشعر الذين ترفعوا عن مدح الناس لنيل جوائزهم وصلاتهم.

(١) القرشي، أبوزيد مُجَدِّ بن أبي الخطاب، جبهة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: علي محمد الجاوي، نخضة مصر، القاهرة: (د.ت)، ص: ٨٢.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص: ١٤.

(٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص: ٢٥٤.

(٤) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٥٩.

(٥) التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهبات، تحقيق: د. عمر فاروق الطباع، ص: ١٤٤.

(٦) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج ١٥، ص: ٢٩٣.

(٧) ابن الأثير (أبو الحسن) على بن مُجَدِّ بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ت ٦٣٠هـ، أسد الغابة، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، ج ٤، ط أولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص: ٥٤٠.

(٨) ابن الأثير، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص: ٥١٠.

(٩) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٢٠٣.

(١٠) القرشي، جبهة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ص: ٨١.

(١١) ابن الأثير، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص: ٥١١.

(١٢) التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق: مُجَدِّ محي الدين، ص: ١٧.

(١٣) الجمحي، مُجَدِّ بن سلام، طبقات فحول الشعراء، محمود شاكر، ط أولى، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م، ص: ٤٣.

أما شعره الذي استحق به تلك المرتبة المتقدمة بين الشعراء الجاهليين فأبرزه المعلقة، والتي أجمع شُراح المعلقات أنه أنشدتها النابغة الذبياني فقال بها لقب أشعر العرب؛ لأنه يصف فيها حياة بدوية صحراوية، ويبدو أنه قالها في شبابه، فهي تمثل الشعر البدوي في متانته وقوته.

مع المعلقة

كان لبيد أحدث أصحاب المعلقات عصرًا وآخرهم موتًا؛ ولعل هذا ما جعل قصيدته تحظى باتفاق الرواة في عدد أبياتها، فهي تسعة وثمانون بيتًا عند كلٍّ من: أبي جعفر النحاس، والتبريزي، وأبي عمرو الشيباني، وأبي زيد القرشي. وهي ثمانية وثمانون بيتًا عند ابن الأنباري، والزوزني، وأما ترتيبها بين القصائد فقد اختلف الرواة فيه، فهي عند أبي جعفر النحاس، والتبريزي، والزوزني الرابعة بعد قصيدة امرئ القيس، وطرفة، وزهير، وعند ابن الأنباري هي السابعة والأخيرة بعد قصيدة امرئ القيس، وطرفة، وزهير، وعنترة، وعمرو، والحارث، وعند أبي عمرو الشيباني الثامنة، وعند أبي زيد القرشي فهي الخامسة بعد قصيدة النابغة، والأعشى، وامرئ القيس، وزهير.

والقصيدة من بحر الكامل، وقافيتها من المتدارك، وقد ابتدورها بقوله^(١):

عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا بِمَيِّ تَأَبَّدَ عَوْهَا فِرْجَانُهَا

معلقة لبيد بن ربيعة

نصّفها بمعلقة الإحساس بالأرض القفر والإحساس بالصراع النفسي لعوامل الحياة الموت، فإنّ المتأمل في معلقة لبيد بن ربيعة يجد أنه قد وظّف جميع مجالات النشاط الإنساني (الطبيعة، الإنسان، المجتمع، الحيوان، الزمن) توظيفاً يخدم رسالة الشعر الخالدة في الجاهلية، فالشعر الجاهلي "أدب تمليه بواعث الحياة القوية وتخطب به الفطرة الإنسانية عامة، وهو الأدب الصحيح العالي"^(٢)؛ العالي^(٣)؛ "لأنّ الشاعر الجاهلي تلمس بغريزته الغامضة الصور الموحية لتجسيد أفكاره، ودلّل بذلك على تنبئه إلى الارتباطات الارتباطات الحميمة بين مظاهر العالم الخارجي ومشاعر العالم الداخلي وخواتمه"^(٤).

ثمّ إنّ الصراع الشديد بين الظروف القاهرة والشعور بالانتماء لهو الخيط النفسي العام الذي ينتظم معلقة لبيد "لأنّها قصة الحياة، فراق فلقاء، ثمّ فراق فلقاء. والإنسان بين هذا كله وسط أمواج من العواطف والمشاعر هادئة حيناً وصاخبة أحياناً، ينتقل من ذروة الفرح إلى حضيض الشقاء"^(٥).

والشاعر الجاهلي استطاع أن يؤثّر فينا؛ لأنّه يخاطب فينا ضمائرنا وأخلاقنا، "فالدنيا روح نلمسها بيد من المادة، فالروح هي الحقيقة، والمادة هي وسيلة الإحساس بها"^(٥).

مظاهر وصور القيم الخلقية في معلقة لبيد

مثلت الأخلاق مركز الشعر الجاهلي، لها يعيشون وعنها يصعدون، والشعر الجاهلي ما وجد في الأصل إلا للتغني بمكارك الأخلاق والشيم، وما القصيدة الجاهلية إلا وسيلة الشاعر للتعبير عن مذهبه في الحياة، وما يعتقده، ويؤمن به. قد عدّت الأخلاق قاعدةً لأنطلاق الشعر والشاعر، فأصبح لزاماً على الشاعر حتى ينال قدره العالي، ومكانته الرفيعة أن يتمثلها في

(١) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ١٩٩.

(٢) العقاد، عباس محمود، مطالعات في الكتب والحياة، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ص: ١٢.

(٣) حاوي، إيليا، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ط ثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص: ٤٩.

(٤) عثماوي، محمد، النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، ط أول، دار الشروق، ١٩٩٤م، ص: ٢٤١.

(٥) العقاد، عباس محمود، مطالعات في الكتب والحياة، ص: ٨.

قصيدته، وما نالته المعلقات من مكانة إلا لأنها مجدت أخلاق الجاهليين، والشاعر الجاهلي استطاع أن يجعل من الشعر والأخلاق وسيطاً نقل من خلاله ما يراه ويؤمن به ويعيشه في مجتمعه، قد فرضت بيئة الشاعر ومجتمعه نمطاً من الأخلاق يتراوح بين الحسن والقبح، هذا ما جمع بين شعراء الحقبة الجاهلية، فقد حرصوا على إظهار ما يميزهم من أخلاق، وما يُعلي قدرهم من فضائل، فلنصل إلى هدف الشاعر ومقصده من نصه الشعري الجاهلي فلا بد من أن ندرس الأخلاق بوصفها مفتاح قراءة القصيدة الجاهلية.

والمتفق عليه عند أدباء ونقاد العصر الحديث: أنّ الأدب هو ابن البيئة التي نشأ فيها والمجتمع الذي انطلق منه ليعبر عن حاجات وميول ورغبات وتطلعات ذلك المجتمع، " فالمدع كائن اجتماعي يتشكل وعيه في إطار اجتماعي، وتحكمه قوانين البيئة المحيطة فتعكس مؤثرات البيئة في العمل الإبداعي المشكّل"^(١). فأى نشاط إنساني يعود في الأصل إلى ما ورثه الإنسان من قيم وأعراف وأخلاق من أباؤه وأجداده.

وفي بحثنا هذا لن نقسم المعلقة إلى أقسام متفاوتة بحسب الموضوعات كما تعارف عليه الباحثون، ذلك؛ لأنّ الغاية من وراء الدراسة تأخذنا إلى غير هذا الاتجاه، بعيداً عن طريق التقسيم الموضوعي لنصّ المعلقة. "إيماناً منا بأن المعلقة عبارة عن كلّ لا يتجزأ، تجمعها ظاهرة واحدة، هي ظاهرة الحزن المسيطر على النصّ من أوله إلى آخره، التي كشفت لنا نفس الشاعر، وعرت أخلاقه، وأظهرت طبعه الإنساني الحقيقي، سوف نجعل من الفضائل الأربعة التي تمثل الوسط الخُلقي المحمود والطرفين المردولين محوراً لدراستنا"^(٢).

كنا نأمل أن نجعل الدراسة في الإطار الخُلقي للمعلقة وتحديد عبر تناولها مرتبة بحسب روايتها المتفق عليها بين الرواة (من أولها إلى آخرها)، لكن بعد التدقيق أثناء القراءة وجدنا أنّ المظاهر الخُلقية المشتركة بين الفضائل متناثرة ومتداخلة ومتنوعة في أبيات المعلقة الواحدة، فصعب علينا الأمر. كان لزاماً علينا أن نجد معياراً آخر أكثر منطقية، أقرب إلى كشف خبايا تلك الظاهرة، بما أنّ الدراسة تدور حول المكارم والمحامد والفضائل في معلقة طرفة فقد اتخذنا أصول الفضائل الأربعة: (العقل، والشجاعة، والعفة، والعدل) أطراً يندرج تحت كلّ منها مظاهره الخُلقية الخاصة به.

إذن إنّ لببداً كان منطلقاً في معلقته من فلسفة خاصة في فهم الحياة، وكان يعيش ما توحى به إليه نفسه، وهو مع هذا وذاك من أعيان عشيرته. قد مثل شعره مرآة نفسه التوّاقة إلى الحياة، وجاءت معلقته تحمل ما يؤمن به ويعتقد فيه من محامد ومفاسد، ومكارم ومسائب، ولذا نجد أنّ الاتجاه الخُلقي في معلقته يتخذ الأشكال التالية:

أولاً : العقل : من مظاهره في معلقة لببدا:

الشعور بالانتماء : وقد اتخذ الصور التالية:

الوقوف على الأطلال والدعاء لها:

" أراد لببدا من خلال هذا الوقوف أن يخلق حالة من التعاطف المتبادل بين المكان والإنسان يرمي من خلالها أن تستقر الحياة، وأن يتفاعل الطرفان فيها ليوجدا حالة من الارتباط والتجذر"^(٣). فشعور لببدا بالانتماء قاده إلى رسم تلك اللوحة الجميلة في

(١) إسماعيل، عبد العليم، ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ط أول، دار الفكر، القاهرة، ٢٠١١م، ص: ٢٧٠.

(٢) الغامدي، محمد عبد الله حسين، الجانب الخُلقي في المعلقات العشر، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى كلية اللغة العربية، ١٤٢٧هـ، ص: ١٢٢.

(٣) قميحة، مفيد، شرح المعلقات العشر، دار الهلال، بيروت، ١٩٩٧م، ص: ٢٠٩.

صدر قصيدته فقال^(١):

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمُقَامُهَا بِمَعْنَى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فِرْجَانُهَا
فَمَدَائِعِ الرِّبَانِ عَرِيٍّ رَسْمَهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الوَحْيُ سِلَامُهَا
دِمْنٌ بَحْرَمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنْيَسِهَا حَجَجَ خَلْوَنَ خَالَهَا وَحَرَامُهَا
زُرِّقَتْ مَرَابِيعَ النُّجُومِ وَصَابِغًا وَذُقُّ الرُّوعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَاتُهَا
مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبِ إِرْزَامُهَا

التسليم بالتلاحم بين الإنسان والمكان

"قد وفق الشاعر أياً بما توفيق عندما جعل الرحيل عن الديار عرياناً، والإقامة فيها ثوباً؛ لأن ذلك يكشف العلاقة الحميمة بين الأرض والإنسان"^(٢). كما في قوله^(٣):

عَرِيَتْ وَكَانَ بِهَا الجَمِيعُ فَأَبْكُوا مِنْهَا وَغُودِرَ نُؤْيُهَا وَتَمَامُهَا^(٤)

الحزم : ومن صوره :

السعي من أجل ضمان الحياة الكريمة

"لعل الشاعر قد رمز بالشتاء إلى حالة الاضطراب والتمرد، وبالربيع إلى عودة الهدوء والصفاء، إلى حالة السعي والجهد الذي يمثل الورود إلى الماء، أي العمل من أجل الحياة التي لا يتم صفاؤها إلا بالتعاون المثمر والحرص المتبادل"^(٥). فقال^(٥):

حَتَّى إِذَا سَلَحًا جُمَادَى سِنَّةً جَزَا فَطَالَ صِيَامُهُ وَصِيَامُهَا
رَجَعَا بِأَمْرِهِمَا إِلَى ذِي مَرَّةٍ حَصِدٍ وَنُجْعٍ صَرِيمَةٍ إِرْزَامُهَا
وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّقَا وَتَهَيَّجَتْ رِيحُ المَصَافِي سَوْمُهَا وَسِهَامُهَا
فَتَنَارَعَا سِبْطاً يَطِيرُ ظِلَالُهُ كَدْحَانَ مُشْعَلَةً يُشْبُّ ضِرَامُهَا
مَشْمُولَةً غُلَّتْ بِنَابِتِ عَرْفَجٍ كَدْحَانَ نَارٍ سَاطِعِ أَسْنَامُهَا

الرؤية والرشيده

"ينكر لبيد على نفسه ما هو فيه من سؤال الأحجار والصخور الصمّ الخوالد التي فقدت كل حركة، وكل نشاط، فكيف السبيل لها إلى أن تتكلم! وكيف السبيل لها أن تبين!"^(٦). فقال^(٧):

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا، وَكَيْفَ سُؤْلُنَا صُمًّا حَوَالِدَ مَا يَبِينُ كَلَامُهَا

(١) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة ، ص: ١٩٩.

(٢) قميحة، مفيد، شرح المعلقات العشر، ص: ٢١١.

(٣) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة ، ص: ٢٠٥.

(*) الثمام (بضم التاء): نبت ضعيف شبيه بالخوص يسد به حُصَص البيوت (تاج اللغة وصحاح العربية، مادة ثمم).

(٤) قميحة، مفيد، شرح المعلقات العشر، ص: ٢١٣.

(٥) الطوسي ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٢١٢ وما بعدها.

(٦) حسين، طه، حديث الأربعاء، ط ثانية عشرة، دار المعارف، مصر، ج ١، ص: ٢٠.

(٧) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة ، ص: ٢٠٤.

مناظرة الخصوم

يعني الوقوف أمام الخصم بحزم ومعرفة بمواطن القوة والضعف عند الخصم "وهو يفتخر بالمناظرة التي جرت بينه وبين الربيع بن زياد العبسي في مجلس النعمان بن المنذر"^(١). بقوله^(٢):

وَكَثِيرٌ غُرْبَاؤُهَا مَجْهُولَةٌ تُرْجَى نَوَافِلُهَا وَيُخْشَى دَائِمُهَا
غُلْبٌ تَشَدُّرٌ بِالذُّخُولِ كَأَنَّهَا جِنُّ الْبَدِيِّ رَوَاسِيًا أَقْدَامُهَا
أَنْكَرْتُ بَاطِلَهَا وَبُؤْتُ بِحَقِّهَا عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَيَّ كِرَامُهَا

عدم الانقياد للعواطف

قدّم لنا لبيد هذا المظهر العقلي في حكمة لطيفة رائعة قريبة من الحفظ بعيدة من النسيان. فقال^(٣):

فَأَقْطَعُ لُبَانَةً مَنْ تَعَرَّضَ وَصَلُهُ وَلَشْتُ وَاصِلٍ حُلَّةٍ صَرَامُهَا
وَأَحْبُ الْمَجَامِلَ بِالْجَزِيلِ وَصَرْمُهُ بَاقٍ إِذَا ظَلَعَتْ وَرَاغَ قِوَامُهَا

نفي الميل مع الهوى

أراد الشاعر أن ينفي لبيد عن نفسه وقومه تدنيس الأعراس، وبنوار الأفعال، وأن يثبت رجحان عقولهم، وإباء نفوسهم؛ لأنهم رزقوا عقولاً يفكرون بما. كما في قوله^(٤):

لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يَبُورُ فَعَالَهُمْ إِذْ لَا يَمِيلُ مَعَ الْهَوَى أَحْلَامُهَا

ثانياً : الشجاعة

من مظاهرها في معلقة لبيد الآتي:

الوفاء : له ثلاث صور، هي:

الوقوف على الأطلال

يُعدّ من الشجاعة؛ "لأنّ الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد وتفكر، وإذا تفكّر وجل وجبن، وإذا جبن داخلته الظنون الكاذبة، والأوهام المؤذية الفاسدة، فصوّرت له الأصوات، ومثّلت له الأشخاص، وأوهمته الحال بنحو ما يعرض لذوي الوسواس"^(٥). ومن ذلك قوله^(٦):

عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا عَمِيٌّ تَأَبَّدَ عَوْهُهَا فِرْجَامُهَا

(١) التّوزني (الحسين بن أحمد)، الملقّات السّبع، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٣هـ، ص: ١٥٦.

(٢) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٢٣٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٣٩.

(٥) للسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٤٦٣هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٩٨٨م ج٢، ص: ١٦٠.

(٦) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ١٩٩ وما بعدها.

فَمَدَافِعِ الرِّيَّانِ عُرِيَّ رَسْمُهَا حَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيِ سِلَامُهَا
دَمْنٌ بَجَرَمٍ بَعْدَ عَهْدِ أُنَيْسِهَا حَجَجٌ حَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا
رُزِقَتْ مَرَايِعَ النُّجُومِ وَصَابِهَا وَذُقُّ الرُّوعِدِ جَوْدُهَا فِرَاهُمَا
مِنْ كُلِّ سَارِيَّةٍ وَعَادٍ مُدَجِّنٍ وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَامُهَا
فَعَلَا فُرُوعُ الْأَيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ بِالْجُلْهَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا
وَالْعَيْرُ سَاكِنَةٌ عَلَى أَطْلَائِهَا عُوْدًا تَأَجَّلُ بِالْفَضَاءِ بِهَامُهَا

تذکر الأحيّة

"حين يعود لبيد إلى لحظة الوداع لا يكاد ينسى منها شيئاً، فهو يعيشها بكل وقائعها"^(١). قد سجل لبيد في وصفه أشياء خفيت على كثير من الشعراء فليست "عين الشاعر وحدها هي التي ترى وتتبع الإبل، بل أذنه أيضاً تسمع"^(٢). وفي ذلك قال^(٣):

شَاقَتَكَ ظَعْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا فَتَكَنَسُوا فُطْنًا تَصْرُ حَيَامُهَا
مِنْ كُلِّ تَحْفُوفٍ يُظِلُّ عَصِيئَةً زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَةٌ وَقِرَامُهَا
رُجُلًا كَأَنَّ نَعَاجَ تُوضِعُ فَوْقَهَا وَظِبَاءَ وَجَرَّةً عُطْفًا أَرْزَامُهَا
خُفِرَتْ وَرَايِلُهَا السَّرَابُ كَأَنَّهُ أَجْرَاعُ بَيْشَةَ أَثْلُهَا وَرِضَامُهَا

الدعاء للديار بالسقيا

هذا من وفاء حب الفارس الشجاع، ومنه قوله^(٤):

رُزِقَتْ مَرَايِعَ النُّجُومِ وَصَابِهَا وَذُقُّ الرُّوعِدِ جَوْدُهَا فِرَاهُمَا
مِنْ كُلِّ سَارِيَّةٍ وَعَادٍ مُدَجِّنٍ وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَامُهَا

الصبر

هو من أجلّ المظاهر عند العرب، وقد تمثل لنا في معلقة لبيد من خلال وصفه لناقته التي شبهها لنا بالبقرة الوحشية التي لم يكتف بالالتفات إليها من الخارج، في شكلها وسرعتها وقوة بطشها، بل تصدّى إلى واقعها الداخلي^(٥). ونخرج من تصوير لبيد للبقرة الوحشية بصور للصبر عند تلك البقرة والتي هي بالتالي صور الصبر عند بني البشر "فالعلاقة الأساسية بين الشاعر والعالم في شكل مزاج بين الرفض والقبول تكمن في هذه الناقه"^(٦). ومن تلك الصور:

(١) ع شماوي، محمد زكي، النابعة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، ص: ٢٤١.

(٢) حسين، طه، حديث الأربعة، ج ١، ص: ٢٢.

(٣) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٢٠٥ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ص: ١٩٩.

(٥) حاوي، إيليا، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ط ٢، دار الكتاب المصري، ١٩٨٠ م، ص: ٣١.

(٦) أبو موسى، محمد محمد، قراءة في الأدب القديم، ط أولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ص: ١١٥.

الإذعان للمنايا^(١)

صَادَفَنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطِيَّشُ سِهَامُهَا

كسر النفس ودفعتها للاحتمال^(٢)

فَتَوَجَّسَتْ رِرَّ الْأَنْبِيسِ فَرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالْأَنْبِيسُ سِقَامُهَا
فَعَدَّتْ كِلَا الْفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤَى الْمَخَافَةِ خَلْفَهَا وَأَمَامُهَا
حَتَّى إِذَا بَيَسَ الرُّمَاءُ وَأَرْسَلُوا غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا
فَلَحِحْنَ وَاعْتَكَّرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدَّهَا وَتَمَامُهَا
لِتُدَوِّهِنَّ وَأَيَّقَنَّتْ إِنْ لَمْ تُدْذِ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مِنَ الْخُتُوفِ حِمَامُهَا
فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا كَسَابَ فَضْرِحَتْ بِدَمٍ وَعُودِرَ فِي الْمَكْرِ سَخَامُهَا
فَيَبْلُغُكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَى وَاجْتَابَ أُرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا
أَفْضِي اللَّبَانَةَ لَا أَفْرِطُ رِيْبَةً أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامُهَا

الجدد في الطلب

"إِنَّ لِبَيْدًا لَا يَصِفُ الْبَقْرَةَ فِي كُلِّ هَذَا الشَّعْرِ مِنْ أَجْلِ نَاقَةِ أَرَادَ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ سُرْعَتِهَا وَقُوَّتِهَا؛ إِنَّهُ وَلَا شَكَّ أَرَادَ أَنْ يُفْصَحَ عَنْ
أَشْيَاءَ حَبِيسَةٍ فِي نَفْسِهِ، فَاخْتَارَ مِتْنَفَسًا لَهَا هَذِهِ الصُّورَ النَّقْلِيَّةَ..."^(٣).

أَفْتَلِكُ أُمَّ وَحَشِيَّةً مَسْبُوعَةً خَدَلْتُ وَهَادِيَّةُ الصَّوَارِ قِوَامُهَا
خُنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرَمْ غَرَضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُعَامُهَا
لِمَعْفَرٍ فَهَدٍ تَنَارُغُ شَلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمَنَّ طَعَامُهَا
صَادَفَنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطِيَّشُ سِهَامُهَا
بَاتَتْ وَأَسْبَلٌ وَآكِفٌ مِنْ دِيمَةٍ يُرْوِي الْحَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا
يَعْلُو طَرِيقَةً مَتْنَهَا مُتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ عَمَامُهَا
بَجْتَأَفٍ أَصْلًا قَالِصًا مُتَنَبِّدًا بِعُجُوبٍ أَنْقَاءٍ يَمِيلُ هِيَامُهَا
وَتُضِيءُ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجَمَانَةِ الْبَحْرِيِّ سُلَّ نِظَامُهَا
حَتَّى إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ وَأَسْفَرَتْ بَكَرَتْ تَزُلُّ عَنِ الثَّرَى أَرْزَامُهَا
عَلِهَتْ تَرَدَّدُ فِي نِهَاءِ صُعَائِدٍ سَبْعًا تُوَامًا كَامِلًا أَيَّامُهَا
حَتَّى إِذَا بَيَسَتْ وَأَسْحَقَ خَالِقُ لَمْ يُبْلِهْ إِزْضَاعُهَا وَفِطَامُهَا

العزم: من أهم صورته في معلقة لبيد:

(١) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٢٢ وما بعدها.

(٣) قمبيحة، مفيد، شرح المعلقات العشر، ص: ٢١٦.

عدم الجزع والاستسلام لليأس

والأبيات التالية تكشف أخلاق لبيد في أنه " ليس ضعيفاً، ولا واهي العزم، ولا مسرفاً في الاسترسال مع العاطفة، وإنما هو صاحب عزم وإرادة وتصميم"^(١). حيث قال^(٢):

بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارٍ وَقَدْ نَأَتْ وَتَقْصَعَتْ أَسْبَابُهَا وَرَمَائِمُهَا
مُرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ وَجَاوَزَتْ أَهْلَ الْحِجَارِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا
بِمَشَارِقِ الْجِبَالَيْنِ أَوْ بِمُحَجَّرٍ فَتَضَمَّنَتْهَا فَرْدَةٌ فَرِحَامُهَا
فَصُورَاتِي إِنْ أَمِنْتَ فِمِظَنَّةٍ فِيهَا وَخَافُ الْقَهْرِ أَوْ طَلْحَامُهَا
فَأَقْطَعُ لِبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصَلُّهُ وَلَشَرُّ وَاصِلِ حُلَّةٍ صَرَامُهَا
وَأَحْبُ الْمِجَامِلِ بِالْجَزِيلِ وَصَرْمُهُ بَاقٍ إِذَا ظَلَعَتْ وَرَاعَ قِوَامُهَا

حماية الحي وركوب الأهوال المخيفة والذي يظهر واضحاً في أبياته التي قال فيها^(٣) :

وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْحَيَّ تَحْمِيْلُ شِكَّتِي فُرْطٌ وَشَاحِي إِذْ غَدَوْتُ لِحَامُهَا
فَعَلَوْتُ مُرْتَقِباً عَلَى ذِي هَبْوَةٍ حَرْجٍ إِلَى أَعْلَامِهِنَّ قَتَامُهَا
حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ وَأَجْرَنَ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا
أَسْهَلْتُ وَأَنْتَصَبْتُ كَجِدْعٍ مُنِيفَةٍ جَرْدَاءٍ يَخْصُرُ دَوْمًا جُرَامُهَا
رَفَعْتُهَا طَرْدَ النَّعَامِ وَشَلُّهُ حَتَّى إِذَا سَخِنَتْ وَخَفَّ عِظَامُهَا
فَلَقْتُ رِحَالَهَا وَأَسْبَلَ نَحْرَهَا وَابْتَلَّ مِنْ زَبَدِ الْحَمِيمِ حَزَامُهَا
تَرَقَى وَتَطَعُنُ فِي الْعِنَانِ وَتَنْتَجِي وَرَدَّ الْحَمَامَةَ إِذْ أَجَدَّ حَمَامُهَا

الكرم : ومن صوره في معلقة لبيد:

التباهي والتلذذ

تصوير لبيد للكرم في هذه الأبيات " لا يقف عند مجرد ما يبذله الشاعر لأصدقائه من كرم الضيافة؛ وإنما هو الكرم الذي يمتزج بالشهامة والبطولة والتضحية بكل غالٍ ورخيص"^(٤). كما في قوله^(٥):

بَلْ أَنْتِ لَا تَدْرِينُ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ طَلَّقِي لِذَبْدٍ هُوَهَا وَنَدَامُهَا
قَدْ بَثُّ سَامِرَهَا وَعَايَةَ تَاجِرٍ وَأَفَيْتِ إِذْ رُفِعَتْ وَعَزَّ مَدَامُهَا
أَعْلَى السَّبَاءِ بِكُلِّ أَدَكْنٍ عَاتِقٍ أَوْجُونََةٍ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَامُهَا

(١) حسين، طه، حديث الأربعة، ج ١، ص: ٢٢.

(٢) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٢٠٧-٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٣١-٢٣٢.

(٤) عشموي، محمد، ركي النابعة الذبياني مع دراسة للقصيد العربية في الجاهلية، ص: ٢٢٧.

(٥) الطوسي، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: ٢٢٧ وما بعدها.

بِصُبُوحِ صَافِيَةٍ وَجَذَبِ كَرِيْنَةٍ بِمُوتَرٍ تَأْتَالُهُ إِنْهَامُهَا
بَاكَرَتْ حَاجَتَهَا الدَّجَاجِ بِسُحْرَةٍ لِأَعْلَى مِنْهَا حِينَ هَبَ نِيَامُهَا
وَعَدَاةَ رِيحٍ قَدْ وَرَعَتْ وَقَرَّةٍ قَدْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
الكرم دعوة للضعيف والجار^(١):

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحِنْفِهَا بِمَعَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفَلٍ بُدِلَتْ لَجِرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا
فَالضَّيْفَ وَالْجَارَ الْجَنِيْبُ كَأَمَّا هَبَطَا تَبَالَةً مُخْصَبًا أَهْضَامُهَا
إيواء الضعفاء وذوي الحاجات^(٢):

تَأْوِي إِلَى الْأَطْنَابِ كُلِّ رِذِيَّةٍ مِثْلَ الْبَلِيَّةِ فَالِصِّ أَهْدَامُهَا
وَيُكَلِّلُونَ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ حُلُجًا مُتَدُّ شَوَارِعًا أَيَّامُهَا
ثالثا: العدل : من مظاهره عند ليبيد:

ادخار المحامد ليوم التفاخر: ومن صورها:

التكلف بالأمر والقيام بها، كما في قوله^(٣):

إِنَّا إِذَا التَقْتِ الْجَامِعَ لَمْ يَزَلْ مِنَّا لِرَازٍ عَظِيمَةٍ جَشَائِمُهَا
إعطاء الحقوق لأصحابها، وهذا في قوله^(٤):

وَمَقْسَمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمُعَدِّمٌ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا
سماحة الخلق ونيل المعالي بالكرم^(٥):

فَضْلًا وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى سَمَحَ كَسُوبِ رَغَائِبِ عَنَامُهَا
الفخر بتوارث المحامد^(٦):

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

إصلاح ذات البين : ومن صوره في معلقة ليبيد :

حماية العشيرة كما نلحظ ذلك في قوله^(٧):

وَهُمُ السَّعَادَةُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْطَعَتْ وَهُمْ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٢٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص: ٢٣٨.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٣٨.

(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٣٩.

(٧) المصدر نفسه، ص: ٢٤١.

تعميم المنفعة^(١):

وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْمُجَاوِرِ فِيهِمْ وَالْمُرْمَلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا

التعاون وهذا واضح في قوله^(٢):

وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبَيِّطَءَ حَاسِدٌ أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِئَامُهَا

رابعاً : العفة : ومن مظاهرها :

الغيرة : وللغيرة عند لبيد صور منها:

حب الاستئثار بالحبوب^(٣):

فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَزَدَتْ إِقْدَامُهَا

فَتَوَسَّطَا غَرَضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا فَلَامُهَا

مُخْفُوفَةً وَسَطَ الْبِرَاعِ يُظَلِّهَا مِنْهُ مُصْرَعٌ غَايَةً وَقِيَامُهَا

الريبة الجائرة التي تداخل النفس فيمن تحب^(٤):

أَوْ مُلْمِعٌ وَسَقَمَتْ لِأَحْقَبَ لَاحُهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا

يَعْلُو بِهَا حَدَبَ الْإِكَامِ مُسْتَحَجَّ قَدْ زَابَهُ عِصْيَانُهَا وَوَحَامُهَا

بِأَجْرَةِ الثَّلْبُوتِ يَرْبَأُ فَوْقَهَا قَفَرِ الْمَرَاقِبِ حَوْفُهَا آرَامُهَا

الاعتداد بالكرامة:

قد اتخذ الاعتداد بالكرامة صور عند لبيد منها:

وصل المواصل وقطيعة المقاطع^(٥):

أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي (نَوَازٍ) بَأَنِّي وَصَالَ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَدَّامُهَا

الترفع عن المكاره^(٦):

تَرَكَ أَمَكِنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْثَلِقُ بَعْضَ التُّفُوسِ حَمَامُهَا

القناعة: ومن صورها في معلقته:

الرضا بالقسمة^(٧):

فَأَقْنَعُ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَيَأْتِي قَسَمَ الْخَلَائِقِ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

١ (المصدر نفسه ،ص:٢٤١.

٢ (المصدر نفسه،ص:٢٤٢.

٣ (المصدر نفسه،ص:٢١٤-٢١٦.

٤ (المصدر السابق،ص:٢١٠-٢١١.

٥ (المصدر نفسه،ص:٢٢٦.

٦ (المصدر نفسه،ص:٢٢٧.

٧ (المصدر نفسه،ص:٢٣٩.

أداء الأمانة كقوله^(١):

وَإِذَا الْأَمَانَةُ قُسِمَتْ فِي مَعْشَرٍ أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظَّنَا فَسْتَأْمُرُهَا

خلاصة الأمر فأخلاق لبيد بن ربيعة محمودها ومرذولها من خلال الشواهد التي وقفنا عندها ربما تُوقِعُ القارئ في لبس لتداخلها، واشتراكها في أكثر من قيمة، وورودها أكثر من مرة في حالتين مختلفتين، لكنّ نقول: إنّ هذا التداخل الشديد الذي يراه القارئ يعود في مجمله بحسب تقديرننا إلى وحدة المصدر النفسي الذي صدرت منه. الأخلاق بشقيها تأخذ برقاب بعضها بعضاً، وتداخل بحيث يصعب فصلها؛ لأنّ سلوك الجاهلي متذبذب، ومتغير بتغير الظروف والأحوال من حين إلى آخر، معلقة لبيد تجسّد الصراع بين الإنسان والطبيعة . إن المظاهر المحمودة في فضيلة العقل عنده جاءت على مظهرين، هما: الشعور بالانتماء والحزم، وتمثل المظهر الأول في صورتين: الوقوف على الأطلال والدعاء لها، والتسليم بالتلاحم بين الإنسان والمكان. أما المظهر الثاني الحزم فتمثل في خمس صور هي: عدم الانقياد للعواطف، والرؤية الرشيدة، مناظرة الخصوم، والسعي من أجل ضمان الحياة الكريمة، نفي الميل عن الهوى. أورد مظاهر فضلية الشجاعة المحمودة في أربع مظاهر، هي: الوفاء، ومن صورته: الوقوف على الأطلال، والدعاء للديار بالسقيا، تذكر الأحبة.

مظهر الصبر تمثل في ثلاث صور هي: الجِد في الطلب، والإذعان للمنايا، وكسر النفس ودفعها للاحتمال.

مظهر العزم تمثل في صورتين، هما: حماية الحي وركوب الأهوال المخيفة، عدم الجزع والاستسلام لليأس.

مظهر الكرم وتمثل في ثلاث صور هي: التباهي والتلذذ، الكرم باعث الميسر ودعوة للضعيف والجار، إيواء الضعفاء وذوي الحاجات.

أما فضيلة العدل، فقد أوردتها في مظهرين هما: ادخار المحامد ليوم الفخرن في أربع صور هي: التكلف بالأمر والقيام بها، إعطاء الحقوق لأصحابها، سماحة الخلق ونيل المعالي بالكرم، الفخر بتوارث المحامد. ومظهر إصلاح ذات البين، من صورته: حماية العشيرة، تعميم المنفعة، التعاون.

جاءت فضيلة العفة عنده في ثلاث مظاهر هي: مظهر الغيرة، من صورها: الريبة الجائرة التي تدخل النفس فيمن تحب، حب الاستئثار بالمحبوب، مظهر الاعتداد بالكرامة، له صورتان هما: وصل المواصل وقطع المقاطع. مظهر القناعة، له صورتان هما: الرضا بالقسمة، أداء الأمانة.

وعلى الرغم من أنّ شخصية لبيد قد اتفق الرواة والمؤرخون والباحثون والنقاد على استقامة القيم والفضائل عنده لتمثله لها في جميع مواقف حياته؛ لذا جاءت صور أمانات الفضائل المحمودة في معلقته خالية من مظاهر وصور الرذائل المذمومة.

النتائج

١/ أنّ الأخلاق هي التي وجهت أفكار ومشاعر وأحاسيس الشاعر.

٢/ أنّ البعد الخلفي قد اكتنف كل أبيات المعلقة.

٣/ مثلت المعلقة حياة لبيد وأخلاقه تمثيلاً وافياً.

٤/ هيمن الاتجاه الخلفي على كل أغراض المعلقة رغم تباين وتعدد تلك الأغراض.

٥/ طول عُمر لبيد أتاح له التعبير عن كل جوانب الحياة في حكمة معتمدة في ذلك على الأخلاق الجاهلية وشعوراً وسلوكاً.

(١) المصدر نفس، ص: ٢٤٠.

أهم التوصيات

إجراء مزيد من الدراسات في معلقة لببب لما تحمله من معان وقيم سامية

المصادر والمراجع

- ١/ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ت ٦٣٠هـ)، أسد الغابة، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، ج ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م.
- ٢/ ابن الأنباري (محمد بن القاسم)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق: عبد السلام محمد هرون، ط ٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ٣/ ابن قتيبة، محمد، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
- ٤/ أبو موسى، محمد محمد، قراءة في الأدب القديم، ط أولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
- ٥/ إسماعيل، عبد العليم محمد، ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ط أولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١١م.
- ٦/ الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ط أولى، ط دار الشعب، ١٩٨٩م.
- ٧/ التبريزي (أبو كزيب يحيى بن علي بن محمد الشيباني)، شرح القصائد العشر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط أولى، مطبعة السعادة، مصر، (د.ت).
- ٨/ جعفر، قدامة، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط ثانية، دار الكتب، بيروت، (د.ت).
- ٩/ الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود شاكر، ط أولى، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م،
- ١٠/ حاوي، إيليا، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ط ٢، دار الكتاب المصري، ١٩٨٠م .
- ١١/ حسن، رشدي علي، شعراء الطبيعة في العصر العباسي الثاني، دار عمار، الأردن، ١٩٨٨م.
- ١٢/ حسين، طه، حديث الأربعاء، ط ثانية عشرة، دار المعارف، مصر.
- ١٣/ ديوان لببب بن ربيعة العامري، ط دار صادر.
- ١٤/ الرّوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين)، شرح المعلقات السبع، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- ١٥/ الطوسي، ديوان لببب بن ربيعة، تحقيق: حنا ناصر الحتي، ط أولى، دار الكتاب العربية، بيروت، ١٩٩٣م.
- ١٦/ العقاد، عباس محمود، مطالعات في الكتب والحياة، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- ١٧/ عثماوي، محمد، النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، ط أولى، دار الشروق، ١٩٩٤م.
- ١٨/ الغامدي، محمد عبد الله حسين، الجانب الخلفي في المعلقات العشر، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى كلية اللغة العربية، ١٤٢٧هـ.
- ١٩/ القرشي، أبو يزيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: علي محمد البجاوي، نخصة مصر، القاهرة، (د.ت).
- ٢٠/ قميحة، مفيد، شرح المعلقات العشر، دار الهلال، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢١/ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٨٨م .